ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

العمارة الدينية في تارودانت
(الجامع الأعظم أنموذجاً)

د. مصطفى ناصر
أستاذ محاضر جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس–المملكة المغربية
MUSTAPHA.NASSIR@USMBA.AC.MA

ملخص:

يتناول هذا المقال جوانب من العمارة الدينية في إحدى الحواضر المغربية العريقة، التي تعبر من بين أهم المراكز الحضارية والعلمية في منطقة سوس، وهي مدينة تارودانت، هذه الأخيرة لعبت أدوارا محورية في تاريخ المغرب كما هو الشأن بمثيلاتها من المدن العتيقة مثل مراكش وفاس. وتمثل تارودانت بأسوارها وجوامعها وديارها معالم أثرية شامخة وشاهدة على عظمة تاريخها، وغنى موروثها الثقافي. وتمثل المنشآت الدينية أيقونة الحضارة الإسلامية والهوية الثقافية والفكرية لشعوبها ومركز إشعاعها الروحي، وتجسد بشكلها المادي المعماري عظمة الإسلام، فهي ثروة حضارية أصيلة، تبرز المستوى الإبداعي والجمالي للصانع المحلي الذي تفنن في تشييد العديد من الروائع المعمارية الدينية البارزة، التي تعكس مدى التجانس والتوافق الحاصل بين المكونات المناخية والطبيعية من جهة، وبين النظم الاقتصادية والاجتماعية السائدة، والتي لا تتنافى مع تقاليد العمارة الإسلامية في عناصرها الأساسية. وتعتبر الجوامع من بين أهم المباني التي بنيت في العديد من الحواضر الإسلامية، وتعرض جوانب كبيرة من تاريخها، ولعبت هذه الصروح الدينية أدوارا جوهرية ربطت بين البعدين الروحي والمجتمعي، فهي وسيلة لحفظ الثقافة والتراث وضمان استمرارية قيم الإسلام وتعزيز التماسك الاجتماعي، ومدرسة لترسيخ القيم الحضارية للأمة الإسلامية.

كلمات مفتاحية: العمارة الدينية، الجوامع، السمات الهندسية، العناصر الزخرفية، التراث والنمط المعماري.

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

RELIGIOUS ARCHITECTURE IN TAROUDANT (THE GREAT MOSQUE AS A MODEL)

Abstract:

This article delves into the religious architecture of Taroudant, a city with a rich historical and cultural heritage in the Souss region of Morocco. Taroudant, like other ancient cities such as Marrakech and Fez, played a central role in Moroccan history. The city's architectural heritage, exemplified by its ramparts, mosques, and residential structures, stands as a testament to its profound history and cultural legacy. The religious edifices are emblematic of Islamic civilization; they embody the cultural and intellectual identity of its people and constitute a center of spiritual influence. The architectural form of these edifices reflects the grandeur of Islam and represents a genuine cultural treasure, testifying to the creativity and aesthetic skill of local artisans. These artisans demonstrated remarkable proficiency in the construction of numerous masterpieces of religious architecture. These masterpieces exemplify the harmony and compatibility between the climatic and natural elements, on the one hand, and the prevailing economic and social systems, on the other, in accordance with the fundamental principles of Islamic architecture. Mosques represent a pivotal component of Islamic urban landscapes, serving as prominent symbols of historical significance within these cities. These religious monuments have played a vital role in connecting the spiritual and social dimensions. These institutions serve a multifaceted role in the preservation of culture and heritage, ensuring the continuity of Islamic values, promoting social cohesion, and functioning as a school for the consolidation of the civilizational values of the Islamic nation.

Keywords: Religious architecture, Mosques, architectural features, Decorative elements, Heritage and architectural style.

1- مقدمة:

قام سلاطين وولاة الدول التي تعاقبت على تاريخ المغرب بإقامة العديد من المرافق الدينية في مناطق مختلفة من بلاد المغرب الأقصى، وتعتبر هذه الروائع المعمارية آثارا مادية تعكس سجلا حافلا بمجموعة من الأحداث والوقائع التي صنعت تاريخ المملكة. وتتشابه هذه المعالم في شكلها العام مع نظيراتها في عدد من الدول الإسلامية، لكنها تنفرد بخصوصيات هندسية مختلفة من حيث أساليبها وتقنياتها المتنوعة، غير أنها لا تتعارض مع الطراز الإسلامي في عناصره الأساسية وزخرفته المستمدة جذورها من مدارس معمارية تقليدية مختلفة.

ويضم المخطط النموذجي للمساجد المغربية العناصر الهندسية التالية: بيت الصلاة الذي يتألف من بلاطات وأساكيب، وبيت لوضع المنبر، إضافة إلى صحن مكشوف تتوسطه نافورة ومئذنة، ثم بيت للإمام وآخر للمؤذن، وللمؤقت إضافة إلى مكان للوضوء، كما يشمل الجامع على مرافق ملحقة أخرى مثل بيت الجنائز ومدرسة ثم مكتبة وحوض مائي (توري، الطاهري، الخمار، 2008، ص21). ولا تختلف هندسة الجوامع الموجودة في تارودانت عن هذا التصميم الهندسي حيث تنتشر في المدينة العديد من الجوامع الجميلة التي يعود تاريخ تأسيسها إلى حقب تاريخية مختلفة، –وفي هذا الصدد–ذكر عبد العزيز الفشتالي حول هذه المنشآت ما يلي: "**ذات القصور المشيدة والأواوين الموطدة والرياض المسفوفة والأنهار المطردة والمساجد المزخرفة والمآذن المقرطة**" (الفشتالي، 1986، ص 253–254). ويعتبر الجامع الأعظم من بين أبرز المعالم التي أثث المشهد التراثي في مدينة تارودانت، وتطرح هذه المعلمة عددا من المسائل الأثرية التي يكتنفها الغموض ويجب الوقوف عندها بهدف تمحيص مقوماتها المعمارية والفنية الأساسية من أجل تكوين صورة مقربة حول التطورات التي طرأت عليها في سياقها التاريخي والإنشائي. ولفهم هذه المسالة سيحاول هذا المقال معالجة الإشكالية التالية: ما هي أبرز السمات المعمارية للجامع الأعظم بتارودانت، وكيف أسهمت في تطور نظمها، وتميز القيم الجمالية والفنية والعناصر الزخرفية للعمارة الدينية في حاضرة سوس مقارنة بمثيلاتها من المدن العتيقة مثل مراكش وفاس؟ وسَتُعالج هذه الإشكالية وفق أصولها العلمية بعيدا عن التعسف والاستعجال في إيجاد إجابات متسرعة، وذلك من أجل تقديم الإضافة المرجوة حول الموضوع.

2- نبذة تاريخية حول الجامع الأعظم (الجامع الكبير)

يقع الجامع الأعظم في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة تارودانت، ويحيط غموض كبير حول تاريخ بنائه، نظرا لغياب إشارات ودلائل في المصادر الأدبية والمحلية حول الموضوع. وعند دخول الفاتحين العرب إلى أحواز تارودانت سنة 62هـ/ 682م شيدوا العديد من الجوامع، ومن بينها

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

مسجد إيجلي القريب من تارودانت، والذي بناه عقبة بن نافع الفهري ويعتبر من بين أهم المنشآت الدينية التي أرخت للتواجد الإسلامي في سوس (ابن عذاري، ج1، 2013، ص 52-54). ويستشف من هذه الإشارة أن بناء الجوامع في المنطقة يعود جذورها إلى الفتح الإسلامي، والمؤكد أن تارودانت قد عرفت تشييد أول مسجد فيها خلال هذه الحقبة لأن المقصد من الفتح هو نشر الدين، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا من خلال مكان مخصص للعبادة. لكن في ظل غياب التنقيبات الأركيولوجية يصعب معرفة تاريخ إقامته.

وعلى الرغم من أن المظان لم تفصح عن تاريخ محدد لإنشاء الجامع الأعظم، لكن يمكن الجزم أن تشييده يعود قبل قيام الدولة السعدية، وما يعزز هذا الطرح، هو ما أورده صاحب كتاب خلال جزولة، أن محمد الشيخ السعدي أعاد بناء الجامع الأعظم في القرن السادس عشر ميلادي، واستقدم أمهر الصناع من أجل توسيعه، وحاول تقليد النمط المعماري الذي استخدمه المرابطين والموحدين والمرينيين في جوامع مراكش والرباط وفاس (السوسي، ج4، د.ت، ص 148)، وتمت الإشارة سابقا أن المؤرخ عبد العزيز الفشتالي ذكر أن حاضرة سوس تارودانت كانت فيها مساجد مزخرفة (الفشتالي، 1986، ص 254). واهتم محمد الشيخ السعدي بتنظيم شؤون هذا الجامع، حيث أصدر أوامره إلى ناظر الجامع الكبير السيد زكرياء بن عثمان بضرورة التصدي لكل من تعرض أو حاول اختلاس المياه المخصصة للجامع، وتوجد وثيقة في الحوالة الحبسية تؤرخ لهذا الحدث، وجاء فيها ما يلي: "**من عبد الله تعالى، أمرنا لخدمينا سيدي زكرياء بن عثمان الناظر بسد المعادي المضرة بماء الأحباس، وسد ما فتحه أرباب الجنات والدور في مصرف الجامع، ومن تعرض له على ذلك يعاقبه الحاكم. وكتب بذلك أوائل جمادى الأولى عام 964 هـ**"(الحوالة الحبسية، ج1، ص42).

حرصت الدولة السعدية على العناية بمدينة تارودانت، لكونها منبت دولتهم ومقر عصبيتهم، وعرفت الحركة العلمية خلال هذه الفترة طفرة مهمة، حيث تم تشييد المدارس والكتاتيب، وتجديد وترميم عدد من المساجد مثل الجامع الأعظم، وجامع القصبة السلطانيةٍ (السوسي، 1960، ص 160)، وجامع سيدي وسيدي، وخصصت أجزاء من مرافقها للتدريس (السوسي، ج4، د.ت، ص 120)، وكانت هذه المؤسسات العلمية مقصدا لطلاب العلم من مختلف أرجاء منطقة السوس والمغرب، وقد برز مجموعة من الفقهاء والعلماء في المدينة أمثال: عبد الرحمن بن محمد التمنارتي، (التمنارتي، 2007، ص 17-18) الحسين بن إبراهيم الخالدي السكتاني، (التمنارتي، 2007، ص 144) وغيرهم من العلماء الذين واكبوا بروز الحركة العلمية خلال هذا العصر، وركزت كتابات هؤلاء الفقهاء والعلماء على المشاكل الاجتماعية والسياسية

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

والاقتصادية التي مرت منها البلاد والتهديدات الخارجية والاضطرابات الداخلية التي كانت تتعرض لها، وشغلت مسألة الجهاد حيزا مهما في أعمالهم حيث ألفت كتب ونظمت قصائد، وحبرت الرسائل والخطب في شحذ الهمم وتوعية الناس بأهمية الدفاع عن الوطن ضد الاحتلال البرتغالي، وتجنب الفتنة وتحصين الجبهة الداخلية ضد المخاطر الخارجية، التي هددت وحدة المغرب الأقصى في تلك الحقبة (حجي، 1978، ص 647)، فأضحى الجامع الأعظم منتدى الأدباء ومقصد النجباء، فكان ذلك كله فاتحة عهد جديد في تاريخ هذه المدينة العريقة (المسلوتي، 1997، ص 88).

وخلال فترة الدولة العلوية الشريفة شهد الجامع إصلاحات كبرى، فقد أمر السلطان مولاي الرشيد عندما غزا سوس سنة 1082هـ/ 1671م –1672م، بنقل مصاريع أبواب مسجد إيليغ إلى الجامع الأعظم، (السوسي، 1960، ص 160) ثم قام ببناء بعض القباب الموجودة بين صحن الجامع والصفوف الأمامية (الساحلي، ج1، 1985، ص 306). وإبان الفترة الاستعمارية تعرضت المعالم المعمارية للجامع الأعظم لتدهور كبيرة نتيجة الإهمال الذي أصابه، حيث ذكر محمد المختار السوسي الحالة التي كان عليها لما زاره سنة 1363 هـ/ 1944م وقال في هذا الصدد: "**وقد بلغ مني الأسف مبلغا عظيما عميقا حين رأيته متشعثا منشق الجدران، قد دعمته إدارة الأحباس بدعائم خشبية، وقد سمعت من بعض المطلعين أن ما أنفق على تلك الأخشاب التي دعم بها المسجد أكثر مما يستلزمه إصلاحه إصلاحا تاما، وسمعت أن إدارة الآثار عارضت في إصلاحه خوف أن يتغير على ما هو عليه**" (السوسي، ج4، د.ت، ص 148). وحول نفس الموضوع أورد المتوكل عمر الساحلي، ما ذكره قاضي مدينة سطات وعميد الطريقة التيجانية السيد أحمد سكيرج حول الوضعية المزرية للجامع عندما زاره وقال:

ودخلت جامعها الكبير فهالني لما رأيت دعائم الحيطان
وتشابك الخشب التي في سقفه وشقوقه من سائر الأركان
قد غيرته يد تظن بأنهـــا قد أصلحت ما فيه من بنيان

إلى أن قال:

لا لا أرى أحدا يرق لحالــه في حاله الحالي سوى السلطان
من مبلغ للحضرة العلوية الشـ ـــماء حال المسجد الروداني

بعد الزيارة التي قام بها السلطان محمد الخامس لتارودانت، ولجامعها الأعظم في مارس سنة 1945م، أصدر جلالته أوامره لإدارة الأحباس بمباشرة الدراسات من أجل إصلاح الجامع الكبير، ولما انتهت أشغال الترميم فيه، افتتح عميل المحتل الفرنسي، وزير الأحباس بوركبة المراكشي الجامع سنة 1954م، بهدف إضفاء الشرعية السياسية والدينية لعملائها، مستغلة نفي

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

السلطان الشرعي محمد الخامس إلى دولة مدغشقر (الساحلي، ج1، 1985، ص 307-308). وبعد حصول المغرب على الاستقلال حضي الجامع الأعظم باهتمام الدولة، حيث خضع لترميمات دورية من أجل الحفاظ على هويته المعمارية. وفي السابع من ماي سنة 2013م اندلع حريق مهول بالجامع، تسبب في انهيار جزء كبير من السقف وعدد من الجدران الحاملة، وتلف الأبواب والنوافذ الخشبية، ويعود سبب هذا الحريق إلى تماس كهربائي أدى إلى تراكم حراري ولد شرارات تفاعلت بسرعة المواد سريعة الاشتعال التي بني بها الجامع. وتكلف جلالة الملك محمد السادس بترميمه من ماله الخاص، وحرص المرممون على استعمال مواد البناء التقليدية، وذلك من أجل الحفاظ على الهوية والطراز المعماري الأصيل للجامع (المندوبية الإقليمية للشؤون الإسلامية، 2021).

3- الوصف الخارجي للجامع

3-1- الواجهة الشمالية

يبلغ طول جدران هذه الواجهة حوالي 57م، أما ارتفاعها، فيناهز 6م، وتنفتح على الطريق المتجهة نحو حي البلاليع وتضم هذه الناحية مدخلا بارزا عن سمت الجدار بحوالي 2م، أما عرض واجهته فيبلغ 4,70م، وسقف بشكل مائل من أجل تفادي تجمع المياه الراكدة فوق سطح المدخل، ويعلوه قرميد بني اللون يمنع تسرب المياه إلى الداخل، وزين أسفل هذا المدخل بألواح خشبية يتراوح ارتفاعها ما بين 70سم و1م، وفي صدره فتحة باب يبلغ عرضها 2م وارتفاعها 2,60م، ويعلوها عقد مفصص، ويغلق عليها بواسطة باب خشبي مكون من مصراعين، زين كل مصراع بسبعة صفوف من رؤوس مسامير حديدية مزخرفة (بوطاسة)، ويتوسط هذا الباب قفلا حديديا قويا بجانبه جرسان دائريان مصنوعان من معدن الحديد (ناصر، 2022، عمل ميداني).

ويوجد في هذه الجهة أيضا مدخل يؤدي إلى قاعة صلاة النساء، يبلغ ارتفاعه حوالي 3م وعرضه نحو 1,40م أما عمقه فيناهز 1م، ويغلق عليه بواسطة باب خشبي مكون من مصراع واحد، زين بسبعة صفوف من مسامير حديدية صماء (غير مزخرفة)، ويتوسطه قفل حديدي صلب وجرس دائري الشكل، وفي أسفل هذا المدخل توجد ألواحا خشبية يناهز ارتفاعها 1,60م. وتضم هذه الناحية مدخلا خاصا بالوفود الرسمية، يبلغ ارتفاعه 2,40م وعرضه نحو 1,60م، يسد عليه بواسطة باب خشبي يتألف من مصراعين، زين كل مصراع بخمسة صفوف من مسامير حديدية صماء (بوطاسة)، ويعلو جدران هذه الواجهة قطع خشبية سقفت بقرميد بني اللون بارز عن سمت الجدار الحامل للسقف، ويخترق جدرانها ميازيب تسهم في تصريف المياه الموجودة في سطح الجامع، كما يوجد في هذه الواجهة أربع نوافذ بيضاء اللون مزخرفة بأشكال مثمنة، يتمثل دورها في تهوية وإضاءة بيت الصلاة (ناصر، 2022، عمل ميداني).

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

2-3- الواجهة الجنوبية

تطل هذه الواجهة على الطريق المؤدية إلى باب الزركان، ويبلغ طول جدران هذه الواجهة 57م، في حين يصل ارتفاع جدرانها إلى 6م، ويوجد في هذه الجهة ثلاثة مداخل، اثنان منها رئيسان يؤديان إلى الجامع، وآخر فرعي يفضي إلى ساحة توجد ناحية الشرق، أما فيما يخص الباب الأول، فهو بارز عن سمت الجدار بمقدار 1,70م، ويبلغ عرض واجهته حوالي 5,5م، ويناهز ارتفاعه 2,60م أما عرضه 2م، ويعلوه عقد مدبب على هيئة نعل الفرس، ويبعد هذا المدخل عن الصومعة بحوالي اثنين وعشرين مترا (ناصر، 2022، عمل ميداني). أما المدخل الثاني فهو محاذٍ للصومعة وبارز عن سمت الجدار بمقدار 1,68م، ويبلغ عرض واجهته زهاء 4م وبصدره فتحة باب يبلغ عرضها حوالي 1,5م، أما ارتفاعها فيناهز 2,11م، ثم يعلوها عقد نصف دائري، ويغلق على هذين المدخلين ببابين خشبيين من مصراعين لكل منهما، وزين كل مصراع بسبعة صفوف من رؤوس المسامير الحديدية المقبية المنقوشة (السايب، 2011، ص 270)، ثم يتوسط كل باب قفل حديدي صلب بجانبه جرسين دائريين مصنوعين من الحديد، كما زُين أسفل واجهة هذين المدخلين بألواح خشبية يتراوح ارتفاعها ما بين 80سم و 1,20م. ويوجد كذلك في هذه الجهة مدخل آخر فرعي مخصص للجنائز يبلغ ارتفاعه 2م وعرضه 1,20م ويغلق عليه بواسطة باب خشبي مكون من مصراع واحد زين بخمسة صفوف من مسامير صماء. ويعلو جدران الواجهة الجنوبية أربع نوافذ تساعد في تهوية وإضاءة الجامع، ويتخللها عدة ميازيب لتصريف المياه الموجودة بسطح الجامع وزركشت بقرميد بني اللون بارز عن سمت الجدار الحامل للسقف، يتجلى دوره في منع تسرب مياه الأمطار إلى الجدران (ناصر، 2022، عمل ميداني).

3-3- الواجهة الغربية

تنفتح هذه الجهة على الطريق المؤدية لحي سيدي إحساين، ويبلغ طول جدرانها 49م أما ارتفاعها فيتراوح ما بين 3,5م و5,5م، ويعلو جنبات هذا الجدار قطع خشبية تم كساؤها بقرميد بني اللون يمنع تسرب مياه الأمطار إلى الجدران ويوجد كذلك في هذه الناحية مدخل بارز عن سمت الجدار بحوالي 40 سم، في حين يبلغ عرض واجهته 4,30م، وتم تسقيفه بقرميد بني اللون وبشكل مائل من أجل تفادي تجمع المياه الراكدة، وبصدر هذا المدخل توجد فتحة باب يعلوها عقد مفصص يناهز عرضها حوالي 2م، في حين يصل ارتفاعها إلى 2,5م، ويغلق عليه بواسطة باب خشبي يتألف من مصراعين زين كل مصراع بسبعة صفوف من رؤوس المسامير الحديدية المزخرفة، ويتوسطه قفل عبارة عن قطعة حديدية طويلة صلبة تسهم في إغلاقه بإحكام، وجرسين دائريين مصنوعين من الحديد (ناصر، 2022، عمل ميداني). وبمحاذاة هذا المدخل يوجد محل

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

تابع لإدارة الأحباس يغلق عليه بواسطة باب خشبي مكون من أربعة مصاريع، يبلغ ارتفاعه زهاء 2,45م وعرضه 2,13م ويعلوه سقف خشبي مزركش، ويوجد في هذه الجهة أيضا، مدخل آخر يؤدي إلى الميضأة يناهز ارتفاعه نحو 2,40م، في حين لا يتجاوز عرضه 1,5م، ويغلق عليه بواسطة باب خشبي مكون من مصراع واحد زين بسبعة صفوف من مسامير بوطاسة، ويتخلله قفل حديدي صلب. وتضم الجهة الغربية كذلك سقاية قديمة يبلغ ارتفاعها 4م وعرضها 6,35م، أما عمقها فيناهز 2م، وزينت واجهتها بعقدين دائريين على هيئة نعل الفرس، ويبلغ ارتفاع العقد الأول حوالي 2,45م، بينما يصل ارتفاع العقد الثاني إلى 2,70م في حين يناهز عرضهما 1,70م (ناصر، 2022، عمل ميداني) وسيجت بواسطة شباك حديدي مزخرف بتقنية يطلق عليها اسم الشهد الرومي (GHANDI, 2011, p 105).

4-3- الواجهة الشرقية

تطل هذه الواجهة على مقبرة كبيرة تابعة للجامع، ويبلغ طول جدارها حوالي 58م، ودُعم بدعامات كبيرة مستطيلة الشكل، ويوجد به بابان: الأول يقع في الجهة الجنوبية الشرقية، ويبلغ ارتفاعه 1,90م وعرضه 1,25م، والثاني يتموضع في الجهة الشمالية الشرقية للجامع، ويصل ارتفاعه إلى 2,45م أما عرضه فيناهز 1,60م، ويغلق عليهما بواسطة باب خشبي يتألف من مصراع واحد لكل منها، وزينا بخمسة صفوف من مسامير حديدية مقببة صماء، ويعلو جدار هذه الناحية قطعا خشبية تم تلبيسها بقرميد بني اللون بارز عن سمت الجدار، كما تضم هذه الواجهة ثماني نوافذ بيضاء اللون مزخرفة بأشكال مثمنة، يتجلى دورها في تهوية وإضاءة قاعة الصلاة. (ناصر، 2022، عمل ميداني).

4- الوصف الداخلي

4-1- الرواق الشرقي لبيت الصلاة (جهة القبلة)

يشغل هذا الرواق مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب حوالي 58م، وعرضها من الشرق إلى الغرب 22م، ويضم هذا الرواق خمس بلاطات مساحاتها مختلفة، يتراوح عرضها ما بين 3,30م و3,50م، وذكر محمد المختار السوسي أن البلاط الخامس والأخير شيده السلطان مولاي الرشيد العلوي: "**وفي الصف الأخير من الصفوف الشرقية منه مخطوط بالجبس يؤذن بأن السلطان مولاي رشيد العلوي هو الذي بنى ذلك الصف بقبابه المرتفعة**" (السوسي، ج4، د.ت ص 148). ويتميز رواق القبلة بوجود محراب خماسي الأضلاع على شكل حنية، يصل عمقه إلى 2,65م وعرضه نحو 1,53م، في حين يتفاوت ارتفاعه ما بين 3,10م و 5,13 م، ويعلو المحراب عقدا دائريا زينت توشيحاته بزخارف نباتية وهندسية نفذت على الجص بتقنيتي التسطير ثم

التوريق، وكذلك بزخرفة يطلق عليها السطاشري، (سمي بهذا الاسم نظرا لوجود ستة عشر شكل هندسي في الزخرفة الموجودة بالمحراب)، ويضم هذا العقد أشرطة زخرفية مكتوبة بخط الثلث كتب عليها آيات كريمة من الذكر الحكيم (أبو رحاب، 2015، ص 348)، وزين المحراب وجدار القبلة بقطع رخامية طويلة الشكل بيضاء اللون (ناصر، 2022، عمل ميداني)، إضافة إلى قطع من الزليج البلدي ذات الشكل العنكبوتي "زخرفة الدلو والكورة" (السايب، 2011، ص 145).

ويخترق جدار القبلة أربعة أبواب: اثنان في الجهة الشمالية للمحراب، والبابين الآخرين يقعان في الناحية الجنوبية منه، حيث يفضي الباب الأول إلى بيت المنبر، ويبعد عن المحراب بحوالي 1,80م، ويبلغ عرضه نحو 1,5م، في حين يناهز ارتفاعه 3,30م. أما الباب الثاني فهو خاص بالإمام والمؤذن، ويبعد عن المحراب بحوالي 1,80م، بينما يبلغ عرضه زهاء 1,30م، في حين يصل ارتفاعه إلى 3,20م، ويغلق عليهما بواسطة باب خشبي مكون من مصراعين في وسطه قفل مزركش مصنوع من معدن النحاس. بينما الثالث فهو خاص بالوفود الرسمية يبعد عن المنبر بحوالي 7م، ويصل ارتفاعه إلى 2,15م أما عرضه لا يتجاوز 1,15م. وخصص الباب الرابع للجنائز، ويصل ارتفاعه إلى 2م، في حين لا يتعدى عرضه 1,18م ويبعد عن المنبر بحوالي 8,20م، ويغلق عليهما بواسطة باب خشبي يتألف من مصرع واحد لكل منهما. وتنفتح هذه الأبواب على غرفة مستطيلة الشكل يوجد بها جهاز خاص برفع الأذان، إضافة إلى مرحاض خاص بالإمام والمؤذن، ويوجد في هذه الغرفة بابان: واحد في الجهة الشمالية وآخر في الناحية الجنوبية يؤديان إلى مقبرة تقع في الجهة الشرقية للجامع. ويضم رواق القبلة ست بائكات، تحتوي على ستة وخمسين قوسا تحملها ستون دعامة، يبلغ سمك الواحدة منها (1م ×1م)، أما ارتفاعها فيصل إلى 1,70م، وتطل البائكة السادسة على الصحن بعشرة أقواس تحملها اثنتا عشرة دعامة، وتعلو جدران هذا الرواق عدة نوافذ مخرومة تسهم في تهويته وإضاءته (ناصر، 2022، عمل ميداني).

2-4- الرواق الغربي

يشغل هذا الرواق مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب 42م، وعرضها من الشرق إلى الغرب 4,25م ويطل هذا الرواق على الصحن ببائكة مكونة من إحدى عشرة دعامة يبلغ سمكها (1م × 1م)، في حين يصل ارتفاعها إلى 1,70م، ويعلوها عشرة عقود دائرية على هيئة حدوة الفرس يتراوح عرضها ما بين 3م و 3,40م، في حين يصل ارتفاعها إلى 4,40م، ثم يوجد في هذا الرواق بابان: الأول يبلغ عرضه 2م، في حين يصل ارتفاعه إلى 3م، وينفتح على ممر يوجد به كتاب وخزانة ومدخل يفضي إلى خارج الجامع، أما الباب الثاني فيبلغ ارتفاعه حوالي 3م أما عرضه 1,70م، ويفضي إلى الميضأة. ويضم هذا الرواق بلاطا واحدا، يتخلله عقدان

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

دائريان على هيئة حدوة الفرس: الأول يوجد في الجهة الجنوبية الغربية، أما الثاني فيقع بالناحية الشمالية الشرقية، أما ارتفاعهما فيصل إلى 3,20م، في حين لا يتعدى عرضهما 1,5م، وزين الجدار الغربي لهذا الرواق بثمانية عقود مفصصة الشكل (ناصر، 2022، عمل ميداني).

4-3- الرواقان الشمالي والجنوبي

يبلغ طول هذين الرواقين من الشرق إلى الغرب حوالي 35م، في حين يناهز عرضهما من الشمال إلى الجنوب 7,5م، وخصص الرواق الشمالي بكامله وجزء من الرواق الغربي (12,30م طولا و4,30م عرضا) مكانا لصلاة النساء وفضاء لتلقي دروس محاربة الأمية، وحُجبت هذه القاعة مع جامع الرجال بلوح خشبي مزخرف بالنحاس، يبلغ ارتفاعه 2م وعرضه 3م، وتعلوه شرفات يتراوح عددها ما بين 16 و18 شرفة، يبلغ ارتفاعها 20 سم أما عرضها فهو ما بين 10 سم و 17 سم. ويضم هذان الرواقان اثنين وثلاثين عقدا دائريا (16 عقدا في كل رواق) مزخرفا بالجبس على هيئة حدوة الفرس ويحتوي كل رواق على ثماني بلاطات (ناصر، 2022، عمل ميداني).

4-4 - الدركاوات

يوجد بالجامع الكبير ثلاث دركاوات (الدركاة: تلي المدخل مباشرة وتفضي إلى داخل الجامع وغالبا ما يكون سقفها مقببا)، وتشغل الدركاة التي تلي مدخل الواجهة الجنوبية الشرقية مساحة يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب 3,50م وعرضها من الشرق إلى الغرب 2,10م، أما الدركاتان الموجودتان في المدخلين الشمالي والجنوبي فهما متشابهتان إلى حد كبير، وتشغل مساحة كل واحدة منهما 2,65م من الشرق إلى الغرب، في حين يبلغ عرضها من الشمال إلى الجنوب حوالي 1,95م وسقفت هذه الدركاوات بقبو نصف دائري الشكل (ناصر، 2022، عمل ميداني).

4-5- الأعمدة والأقواس

تتميز هندسة الجامع الكبير بكثرة الأعمدة قصيرة الارتفاع والأكتاف الحاملة للسقوف، وزينت هذه الأعمدة بأقواس مدببة على هيئة حدوة الفرس، ومفصصة الشكل، ويبلغ عددها زهاء 128 قوسا يتفاوت عرضها بين 2,88م و 3,30م، في حين يصل ارتفاعها إلى 4,40م، وأرجع عثمان عثمان إسماعيل سبب قصر الأعمدة في العمارة المغربية واختلافها عن نظيرتها في المشرق، إلى الخصائص المناخية: ذلك أن طول فصل الشتاء بالمغرب وزيادة معدل الأمطار وانخفاض درجة الحرارة عن المشرق، استلزم نهج هذا النمط المعماري من أجل تحقيق دفء أكثر، وحماية الصحن من الأمطار (إسماعيل، ج2، 1993، ص 166).

6-4- سقف الجامع

أما السقف، فهو عبارة عن هياكل هرمية متراصة مغطاة من الخارج بالقرميد البني الفاتح، بينما زين السقف الداخلي للجامع بألواح خشبية تتألف من عدة أوتار (برشلا) (إسماعيل، ج2، 1993، ص 329)، ونقشت عليه رسوما هندسية طليت بالأحمر والأخضر، ويتميز السقف الخشبي للجامع الكبير بكونه عنصرا بنائيا إنشائيا وعنصرا زخرفيا في نفس الوقت ويخلل سقف الجامع مجموعة من الثريات الناقوسية المصنوعة من معدن النحاس (ناصر، 2022، عمل ميداني)، وسميت بهذا الاسم لأنها كانت تصنع من النواقيس التي كان المسلمون يزيلونها من الكنائس في بلاد الأندلس، وكانت هذه الصناعة انتشرت في العصرين الموحدي ثم المريني (سالم، 2010، ص 49-50). وكان يتكلف بإضاءة هذه الثريات شخص يطلق عليه اسم الوقاد، حيث كانت توضع تحت تصرفه كميات وافرة من الزيت والفتائل، وبعد أداء صلاة العصر يهيئ الوقاد كل ما يلزم لإشعال الثريات الموجودة في البلاطات وعند الأبواب، ونظير عمله هذا خصص له راتب قار يؤدى له من أحباس الجامع (سالم، 2010، ص 49-50).

7-4- صحن الجامع

عبارة عن فناء مكشوف يبلغ طوله حوالي 40م وعرضه زهاء 29م، وتتوسطه نافورة دائرية الشكل مصنوعة من الرخام، لها أربع عشرة حافة مفصصة يبلغ عمقها حوالي 40 سم، وترتكز على قاعدة أسطوانية رخامية يبلغ ارتفاعها 60 سم، ويحيط بها حوض مربع الشكل (2,80م × 2,80م) يصل عمقه إلى 45 سم ولا يتجاوز سمك جدرانه 38 سم، أما وظيفتها فتتجلى في توفير مياه الوضوء للمصلين، ورُبطت بمجرى يقوم بصرف المياه العادمة، ويحيط بهذه النافورة أربع شجيرات من الليمون، أما أرضية الصحن فقد فرشت بقطع رخامية مربعة الشكل ألصقت بانتظام، ويتخللها زليج تقليدي أخضر اللون (ناصر، 2022، عمل ميداني).

ويضم الصحن أربعا بائكات تضم أربعة وثلاثين قوسا على هيئة حدوة الفرس، وفي الواجهتان الغربية والشرقية يوجد بائكتين، بها اثنتين وعشرين دعامة مزخرفة بالزليج البلدي أخضر اللون، يبلغ سمكها (1م × 1,20م) في حين لا يتجاوز ارتفاعها 1,70م، ويعلو هذه الدعامات عشرة أقواس بكل بائكة، ويناهز ارتفاع الواحد منها (القوس) 4,20م ويتراوح عرضها ما بين 2,80م و3,30م، ويوجد بالعقد الأوسط الموجود في الجهة الشرقية، محراب صيفي يطلق عليه اسم العنزة وهو عبارة عن حنية مجوفة يبلغ عمقها حوالي 30 سم، بينما يناهز عرضها 60 سم، أما ارتفاعها فيصل إلى 2م، ويعلوها عقد مدبب على شكل نعل الفرس. أما فيما يخص الواجهتين الجنوبية والشمالية، فتشرف كل واحدة منهما على الحصن ببائكة تضم سبع دعامات مزخرفة

بالزليج البلدي أخضر اللون، يبلغ سمكها (1م × 1,20م)، ويعلوها ثمانية عقود على هيئة حدوة الفرس، يصل ارتفاعها إلى 4,30م، أما عرضها فيناهز 3,20م، ويتكلل هذه الواجهات قرميد بني اللون أعطى رونقا جميلا للصحن (ناصر، 2022، عمل ميداني).

8-4-المئذنة

تقع المئذنة بالجهة الجنوبية للجامع، وهي مربعة الشكل، حيث يبلغ ارتفاعها حوالي 22,5م دون احتساب علو الجامور فهذا الأخير يصل ارتفاعه إلى حوالي 6م، ويعلوه ثلاث كرات نحاسية متفاوتة الحجم، أما سمكه فيبلغ (2م × 2م)، في حين يتراوح سمك قاعدة الصومعة (5،5م × 5,5م)، وزينت باثنتي عشرة شرفة، إضافة إلى زخرفة هندسية متكررة على هيئة شبكة معينات متصلة، بداخلها زليج مربع الشكل متعدد الألوان، ويتخللها عشرون نافذة محاطة بجهاتها الأربعة (ناصر، 2022، عمل ميداني).

وفي الرواق الجنوبي للجامع يوجد باب خشبي صغير من مصراع واحد، يبلغ ارتفاعه 1.70م وعرضه 77 سم يؤدي إلى داخل المئذنة، وينفتح هذا الباب على بيت صغير خاص بالمؤذن، ثم على سلم صاعد يضم نحو تسع وثمانين درجة بنيت بالتراب والآجر والخشب الذي يوجد بحافتها، وفي وسط المئذنة يوجد كذلك باب خشبي صغير من مصراع واحد يصل ارتفاعه إلى 1,20م في حين لا يتجاوز عرضه 50 سم أما عمقه فيناهز 1,20م، يفضي إلى سطح الجامع، وكان في المئذنة ساعة شمسية، تعين المؤذن على معرفة أوقات الصلوات الوسطى (ناصر، 2022، عمل ميداني).

5- ملحقات الجامع

1-5-الميضأة

توجد الميضأة في الجهة الغربية للجامع، وتشغل مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طول جدارها من الشمال إلى الجنوب حوالي 16,70م وعرضها من الشرق إلى الغرب 15,20م، ويُوصل إليها من خلال مدخلين: الأول يصل ارتفاعه إلى 2,45م وعرضه 1,44م، أما عمقه فلا يتجاوز 60 سم، وهو عبارة عن باب خشبي مكون من مصراع واحد، في وسطه قفل حديدي قوي، وبجانبه جرسان دائريان مصنوعان من الحديد. أما المدخل الثاني فقد سبق الإشارة إلى معطياته الهندسية، ويفضي إلى الميضأة، حيث ينفتح على صحن تبلغ مساحته حوالي 90م^2، ويتخلله (الصحن) أربعة بائكات تضم حوالي عشرين دعامة يعلوها خمسة عشر قوسا دائريا على هيئة حدوة الفرس، وفي الجهتين الجنوبية والغربية للميضأة يوجد أحد عشر مرحاضا يشغل كل واحد منه مساحة بطول 2م، باستثناء المرحاض الخاص بذوي الإعاقة الذي يصل طوله إلى 3,5م، بينما يبلغ عرضها

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

حوالي 80 سم وارتفاعها 3,30م، أما فيما يخص عرض فتحة مدخل كل مرحاض فتناهز 84 سم، بينما يصل ارتفاعها إلى 2,5م، ويغلق عليها بواسطة أبواب خشبية مكونة من مصراع واحد، أما سقف الميضأة فارتفاعه يبلغ حوالي 4م، وسقف بألواح من خشب الأرز، وزين الجدار الشرقي بخمسة أقواس دائرية على هيئة حدوة الفرس رُصعت بالزليج البلدي. ويوجد وسط صحن الميضأة، نافورة مربعة الشكل يصل طولها إلى 3م وعرضها 2,40م، في حين يبلغ عمق الحوض نحو 80 سم، وتعتبر منبعا للمياه الجارية وتمكن من المصلين من أداء الوضوء بسهولة (ناصر، 2022، عمل ميداني).

2-5- المدرسة

كانت هذه المدرسة تتواجد أمام الباب الغربي للجامع، تحديدا في الطريق المؤدية نحو منزل آل الوقاد التلمساني والقريب من زاوية حي سيدي حساين، وفي الفترة السعدية أعيد بناؤها وازدهرت فيها الدراسة، وذكر محمد المختار السوسي أنها كانت مليئة بطلبة الأستاذ عبد الله خرباش (السوسي، 1960، ص 160)، وتضم هذه المدرسة خزانة يوجد بها مجموعة من الكتب التي قام المولى عبد الملك ابن مروان بتحبيسها لفائدة الجامع الأعظم "**مولانا أبي مروان بن أمير المؤمنين -أيده الله- ونصره أن حبس ما يذكر من الكتب المباركة على خزانة الجامع الأعظم عمره الله بدوام الذكر**" (الحوالة الحبسية، ج1، ص94). ودرس في هذه المدرسة فقهاء علماء أجلاء أمثال قاضي فاس أحمد البكري، الذي استقدمه السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى تارودانت بهدف تعليم ابنه المولى عبد السلام، وعينه السلطان قاضيا على المدينة، واشتغل بالتدريس والخطابة في الجامع الأعظم، وتخرج على يده العديد من الطلبة السوسيين، وبقي هذا العالم في تارودانت إلى أن وافته المنية فيها سنة 1198 هـ 1784م (حجي، 1988، ص 266)، ومن بين العلماء الذين درسوا فيها أيضا العالم عبد الرحمان التمنارتي والعلامة أبو زيد الجشتيمي، وكان آخر من درس في هذه المدرسة التي تعرضت للاندثار كل من الفقيه أحمد أمزارجو وعبد الله خرباش والقاضي أحمد بن الحاج مبارك بن المصلوت (السوسي، 1960، ص 160-161). وبعد أن هدمت المدرسة العتيقة، خصصت مساحة داخل الجامع، تحديدا في الجهة الغربية منه لتشييد مدرسة جديدة فيه، وتشغل مساحة 74م^2 بها قاعتان يتراوح طولهما ما بين 6,40م و8,40م، في حين يبلغ عرضهما حوالي 5,10م، وتنفتح على ممر مكشوف يبلغ طوله 14,5م وعرضه 4,20م، ويوجد فيه بابان: الأول ينفتح على الخارج (حومة سيدي حساين) أما الباب الثاني فيؤدي إلى داخل الجامع، ويُدَرس في هذه المدرسة الفقيه إبراهيم بورزي (ناصر، 2022، عمل ميداني).

6- خاتمة

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

تشهد المنشآت الدينية لحاضرة سوس تارودانت، على عراقة المدينة ونهضتها الحضارية والرمز المادي الذي يجسد هويتها الثقافية، والمرآة التي تعكس سجلها الحافل بمجموعة من الأحداث والوقائع التي صنعت تاريخها، وترتبط هذه الآثار بتقاليد العمارة الإسلامية في خصائصها المعمارية، وتعكس بوضوح فلسفة حضارة عظيمة جمعت بين تلبية حاجات الإنسان اليومية والروحية. ولم تكن هذه المباني مجرد جدران وأسقف، بل كانت لوحات فنية تحكي قصة تطور العلوم والفنون عبر العصور المختلفة، مما جعلها تعيش لقرون طويلة، وتُخبرنا عن عظمة الآثار الإسلامية. ويظهر من خلال تنظيم الهيكل العام للجامع الأعظم، وجود تداخل بين مراحل البناء، ذلك أنه لم يشيد دفعة واحدة، وإنما عبر مراحل تاريخية مختلفة حيث وُسع خلال فترة الدولة السعدية، وَرُمم على يد سلاطين الدولة العلوية اللذين خصوا عنايتهم الكبيرة بهذه المعلمة التاريخية. ولم تقتصر وظيفة هذا الصرح المعماري على ممارسة الشعائر الدينية فقط، وإنما شمل أيضا تلقين العلم وعقد الهدن والمصالحات بين الأطراف المتخاصمة من أبناء المدينة، وكان أيضا مأوى للعديد من الوافدين على المدينة الذين لا يجدون مكانا للمبيت الأمر الذي أسهم في ترسيخ وتعزيز الأمن الاجتماعي والروحي في حاضرة سوس تارودانت.

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

الرسم 1: رسم هندسي للجامع الأعظم

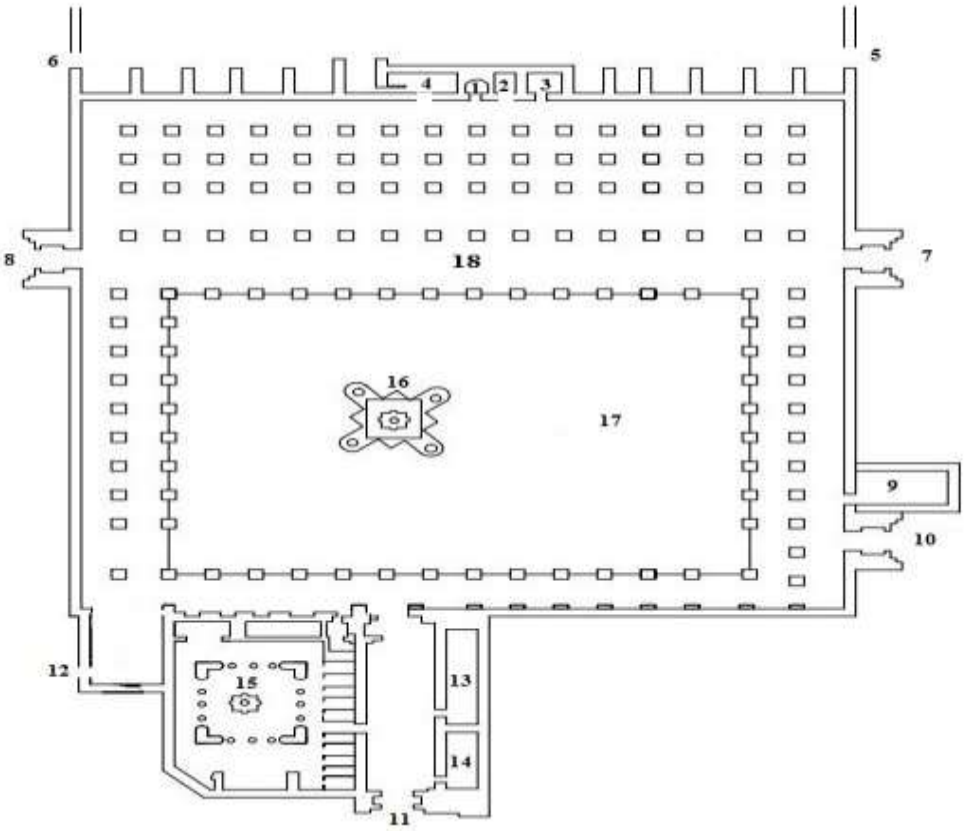

المفتاح:

1-المنبر
2-المحراب
3-مصلى الجنائز
4-مدخل الإمام
5-مدخل ثانوي
6-مدخل الوفود الرسمية
7-مدخل رئيس
8-مدخل رئيس
9-الصومعة
10- مدخل رئيس
11- مدخل رئيس
12- مدخل قاعة صلاة النساء
13- قاعة
14- الكتاب
16- النافورة
17- الصحن
18- قاعة الصلاة

المصدر: عمل الباحث الميداني

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

الصورة 1: الجامع الأعظم

الصورة 2: محراب الجامع الأعظم

الصورة 3: رواق القبلة

المصدر: تصوير الباحث

ISSN: 2698 - 6159
ISSN (PRINT): 2699 - 2604

الصورة 4: صحن الجامع الأعظم

المصدر: تصوير الباحث

7- قائمة المراجع

1- إسماعيل عثمان عثمان، (1993)، **العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، عصر الدولة المرينية ودولة بني وطاس**، ج2، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الرباط، ص 166.

2- **الحوالة الحبسية**، ج1، (د.ت)، المندوبية الإقليمية للشؤون الإسلامية لتارودانت، ص 42.

3- خالد السايب، (2011)، فنون **الزخرفة في المعمار المغربي حضارة وتميز**، ج2، منشورات وزارة السياحة والصناعة التقليدية المغربية، الطبعة الأولى، ص145.

4- أبي زيد بن عبد الرحمن التمنارتي، (2007)، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي، تقديم محمد المنوني، دار الكتب العلمية الطبعة الثانية، بيروت، ص 369.

5- أبي العباس أحمد بن محمد ابن عذراي، (2013)، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، تحقيق بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ج1، تونس، ص52.

6- عبد العزيز الفشتالي، (1986م)، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، تحقيق عبد الكريم كريم مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، ص 253-254.

7- عبد العزيز توري، أحمد صالح الطاهري، عبد الطيف الخمار، (2008م)، "نظرة حول التنظيم المكاني للمساجد المغربية"، ضمن، **خصوصيات معمار المساجد بالمملكة المغربية**، مطبعة التومي، الرباط، ص21.

8- عمر المتوكل الساحلي، (1985) **المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة بسوس**، ج1، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص 306-308-307.

9- محمد السيد محمد أبو رحاب، (2015م)، **الآثار الاسلامية بالمغرب الأقصى في العصرين المريني والسعدي**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الطبعة الأولى، الإسكندرية، ص358.

10- محمد المختار السوسي، (1960)، **سوس العالمة**، مطبعة فضالة، المحمدية، ص 160.

11- محمد المختار السوسي، (د.ت)، **خلال جزولة**، ج4، المطبعة المهدية، تطوان، ص 152.

12- محمد حجي، (1977)، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج.1، مطبعة فضالة، المحمدية، ص 266.

13- محمد حجي، (1978)، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج.2، مطبعة فضالة، المحمدية، ص 647.

14- محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، (1988)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ص266.

15- مصطفى بن عمر المسلوتي، (1997)،"الحركة العلمية في الجامع الكبير بمدينة تارودانت خلال القرنين 10 و11 الهجريين"، **دعوة الحق** مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر، العدد، 25، يناير-فبراير، ص88.

16 - Abdelhamid GHANDI, 2011, **L'art du fer forgé à travers L'architecture au Maroc**, Imprimerie Najah al Jadida Casablanca, p105.